الحجاج الفلسفي 02:

المحور01: الحجاج الفلسفي في الفلسفة الإسلامية.

المحاضرة01:

**تمهيد:**

لم يتناول الفلاسفة المسلمون مسألة الحجاج الفلسفي كقضية فلسفية خاصة في فلسفتهم، أي لم يفكروا فيه كقضية فلسفية مستقلة تحتاج إلى تحليل طبيعتها ووظائفها وأهميتها في الخطاب الفلسفي، و مع ذلك، استخدموه في تحليل المشكلات الفلسفية التي إعترضتهم، وفي الدفاع عن آرائهم فيها أو تفنيد آراء أخرى. حيث يشهد الخطاب الفلسفي عند ابن رشد والكندي وابن سيناء والغزالي على قوة الحجج العقلية والنقلية التي يتضمنها، لكن عندما نعتبر علم الكلام جزءا لا يتجزأ من الفلسفة الإسلامية، عندها يجب أن ننظر للفلسفة الإسلامية بشكل أوسع، أي نوسع مجال الفلسفة الإسلامية ليشمل علم الكلام والجدل والمناظرة والبلاغة والفن، عندها سنجد عناية بعض مفكري الإسلام بقضية الحجاج وأساليبه، ومنه فإن الإشكالية المحورية المطروحة علينا هنا هي التساؤل عن طبيعة الحجاج في مختلف تلك المجالات المذكورة، والمرتبطة بالفلسفة الإسلامية: كيف نظر فلاسفة الإسلام ومفكريه إلى مفهوم الحجاج ؟

1. **الحجاج في علم الكلام الإسلامي :**

**تعريف علم الكلام :**  تعريف ابن خلدون : " علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية باستخدام الأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن أهل السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الايمانية هو التوحيد " ، فهذا يدل على أنه وجد كعلم يدافع عن القضايا الأصولية الأساسية مثل : وجود الله وصفاته، ووجود العالم الآخر ، العقاب الإلهي ، الحشر، الحرية، القدر ...الخ.

تعريف الزركشي ، و هو يعرف علم الكلام على " أنه الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع له المعاني فيه " أي لا يعود بعد ذكر الحجة للمعنى المقصود من خلط و لا غموض، حيث يتضح المعنى للمتلقي.

**نشأته:** يعتبر علم الكلام علما إسلاميا أصيلا، وعلما حجاجيا بمعنى الكلمة، وقد نشأ عن ظروف خاصة في تاريخ المسلمين أهمها:

* الدفاع عن العقيدة الإسلامية وعن قضاياها الأساسية بحجج عقلية.
* المشاكل السياسية بين المسلمين كالخلاف في قضية الإمامة التي طرحت إشكال ما هو الأحق بالسلطة بعد وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وعن هذه الإشكالية نشأت الفرق الكلامية الأولى كالمرجئة و الشيعة و أهل السنة و الجماعة .
* الرد على المبتدعين و المنحرفين، الذين واجهوا انتشار الإسلام من الشعوب الأخرى بالنقد والتشكيك والتحريف والتزييف لمقاصده وآياته وأشخاصه وتاريخه.

و يمكن التمييز بين نوعين من علم الكلام: علم الكلام الكلاسيكي وعلم الكلام المعاصر في الفكر العربي الإسلامي، حيث تصدى كلاهما لما يلحق القضايا الإعتقادية والإسلامية من تفسيرات خاطئة وتشويه ظالم.

1. **علم الكلام الكلاسيكي :**

أدرك علماء الكلام الكلاسيكيين المسلمين أهمية الحجاج في علم الكلام و لذلك فكروا في الوسائل المختلفة التي تعزز الحجاج سواء كانت لغوية أو بلاغية أو منطقية، وظهرت في هذا المجال اتجاهات عديدة منها : الاتجاهات الأدبية الخطابية و يمثلها خاصة الجاحظ في كتابه " البيان و التبيين " و الاتجاه الثاني : اتجاه منطقي يمثله ابن وهب في كتابه " البرهان في وجوه البيان " الاتجاه الثالث : اتجاه بلاغي منطقي و يمثله السكاكي في كتابه " مفتاح بيان العلوم " .

مع العلم أن مصطلح الحجاج يأخذ بمصطلح البيان في الفكر الكلامي الكلاسيكي ، و هذا التداخل بين المصطلحين يظهر أكثر من خلال كتاب الجاحظ " البيان والتبيين " ولذا سنأخذ الجاحظ كمثال بارز باعتباره أديبا أولا ومعتزليا ثانيا أي ينتمي إلى مدرسة من مدارس علم الكلام الإسلامية.

**الحجاج عند الجاحظ** ( 150ه- 225ه ): هو أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني البصري، واسم الجاحظ يأتي من جحوظ عينيه، وقد عاصر الجاحظ أهم فترة زاخرة بالثقافة والعلم في عهد الخلافة العباسية في العراق، من أهم آثاره " البيان والتبيين" ، " البخلاء" ، "، " الحيوان". وهو أديب ومفكر، وأحد شيوخ المعتزلة ورئيس أحد فرقها التي سميت باسمه " الجاحظية "، وقد اشتهر بحجاجه عن اللغة العربية والإسلام باستخدام الحجج العقلية ضد النزعة الشعوبية في عصره.

لقد تميز منهج الجاحظ بطابعه العقلي الرصين، فهو لم يكتف بالمعرفة الحسية، بل حاول إخضاعها للعقل، أي يحاول التحقق منها عقليا، ليبعد الشك والوهم، وقد كان يعيب على أستاذه " النظام " الذي كان يبني أقيسته على أصول ومبادئ لم يتحقق منها عقليا. والى جانب ذلك، فقد كان الجاحظ أكثر فصاحة وبلاغة بين مفكري عصره، وأحد الأقطاب المؤسسين للبيان العربي.

دراسة الباحثين المعاصرين للحجاج في كتاب الجاحظ " البيان والتبيين " لاسيما الأستاذ (محمد العمري ) في كتابه: ( البلاغة العربية أصولها وامتداداتها) يظهر ارتباط مفهوم الحجاج بمفهوم البيان عند الجاحظ، و يرى أنه يأخذ ثلاثة وظائف أساسية في كل أشكال النصوص:

1. **الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية**: هدف المخاطب هنا هو الإخبار قصد الإفهام
2. **الوظيفة التأثيرية:** و هنا قصد المخاطب استمالة المتلقي و التأثير فيه بعدما وجد انه ينفر من الموضوع
3. **الوظيفة الحجاجية :** و تظهر أكثر في حالة الخصام بين المخاطب و المتلقي، فيضطر للحجاج.

لكننا مادمنا نتكلم عن علم الكلام والجاحظ من الأدباء والمتكلمين المعتزلة، فسنكتفي هنا برد الجاحظ على النزعة الشعوبية في عصره: الشعوبية هي نزعة الشعوب التي عرفت الإسلام حديثا إلى العودة لتراثهم وثقافتهم والدفاع عنها، ومن ثم التشكيك في مبادئ الإسلام ولغته والعرب الذين أتوا به وتشويههم.

تقوم مناظرة الجاحظ للنزعة الشعوبية على تحديد مجالات طعنهم، وهي: الفروسية والحرب، الخطابة والبيان، اتخاذ العصا والمخاصر في الخطابة والشعر، وأخيرا لبس العمائم، وهذا التحديد يفضي إلى معرفة آرائهم، ومن ثم دحضها بالجدل العقلي والميل إلى الإقناع بالتركيز على وجهة نظر معينة.

مثال آخر عن الحجاج في علم الكلام الإسلامي نجده في المقابلة بين المعتزلة والأشاعرة في الدفاع عن القضايا الأصولية الإسلامية، فقد تبنى المعتزلة منهجا عقليا منطقيا في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وكانوا يؤولون الآيات القرآنية على أسس عقلية، فاستخدامهم للنقل كان في سياق العقل والمنطق، وقد استفادت فرقهم المتأخرة من التراث المنطقي الأرسطي خاصة والفلسفي اليوناني بشكل عام. ومن المهم أن نعرف أن تفسيرهم لقضية حشر الأجساد مثلا أو رؤية الله أو إستوائه على العرش كانت تقوم على العقل، حيث نفوا عن تلك القضايا الطابع المادي وأسسوها على الجانب الروحي العقلي الذ ينسجم مع رؤيتهم.

أما الأشاعرة فقد أسسوا حجاجهم عن العقيدة الإسلامية بالاستناد إلى العقل والنقل معا، فلو كان العقل وحده كافيا لمعرفة الحق لما نزل الشرع، ولما أرسل الله للناس الأنبياء والرسل، ومن جهة أخرى، فإن الشرع في الكتب المنزلة من الله لا تفهم إلا بالعقل، فالشرع هنا لا يعمل عمل المؤسس للاعتقاد، بل عمله هو عمل السمع والفهم، ومن هنا كانت الحجج التي يعتمد عليها الأشاعرة هي الحجج العقلية والنقلية معا.

* نستنتج أن علم الكلام الإسلامي الكلاسيكي يتضمن فكرة الحجاج و يوظفها في الدفاع عن العقيدة الإسلامية .

1. **علم الكلام الإسلامي المعاصر :**

نشأ أيضا في إيران مع " علي شريعتي " و في مصر مع "حسن حنفي"، وفي المغرب مع " طه عبد الرحمان" الذين حولوا العقيدة الإسلامية إلى إيديولوجيا ثورية للدفاع عن عقيدة المسلمين و قضاياهم المعاصرة. غير أن علم الكلام الإسلامي المعاصر لم يبق محصورا في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، بل توسع للدفاع عن ما يعتقده علماء الكلام المعاصرين من وجهة نظر الإسلام السياسية والتربوية و الاقتصادية و الاجتماعية ..الخ .

ومن المهم ان نضرب مثالا بارزا لعلم الكلام الإسلامي المعاصر في شخص الفيلسوف و المفكر المغربي طه عبد الرحمان . فقد حاول هذا المفكر إيجاد علاقة بين المذهب الكلامي و الحجاج الخطابي فلاحظ أن الخطاب الكلامي و الخطاب الفلسفي التداولي لا يختلفان من حيث شروطهما الاستدلالية الحجاجية ، لان كلاهما يستخدم الاستدلال الحجاجي ، وأن علم الكلام يتصف بخصائص تداولية تفوق الخطاب الفلسفي العقلاني و البرهاني . يقول طه عبد الرحمان : " الحجاج الفلسفي التداولي هو فعالية استدلالية خطابية مبناها عرض رأي المعروض أو ببطلان الرأي المعترض عليه استنادا إلى مواصفات البحث عن الحقيقة الفلسفية "

* **هذا يعني أن الحجاج الفلسفي التداولي مثل الخطاب في علم الكلام يتطلب المناظرة و الحوار و الجدل و يستخدم الوسائل الحجاجية المختلفة اللغوية و المنطقية و التواصلية الحوارية التي تراعي ثقافة المتلقي و مستواه و سياقه الاجتماعي و السياسي ..الخ**